

تجليات الثقافة العربية في الصناعة المعجمية

قراءة تحليلية لـ «معجم الاستشهادات» للدكتور علي القاسمي⁽¹⁾

محمد اليملاحي

باحث من المغرب

معلوم أن المعجم كتاب يعرض مادته على نحو مخصوص يخالف باقي الكتب؛ فهو لا يتضمن أبواباً ولا فصولاً، ومن ثم يصعب على قارئه أن ينقل فحواه إلى قارئ آخر لأنه ليس أمام أفكار أو آراء قابلة للنقل والتلخيص. ولهذا سأركز قراءتي لهذا المعجم على بعض المبادئ المنهجية التالية:

- 1- بيان موقع معجم الاستشهادات من مؤلفات الكاتب
- 2- بيان موقع معجم الاستشهادات من الحركة المعجمية العربية في القديم والحديث
- 3- الأسس النظرية لمعجم الاستشهادات
- 4- الأبعاد التجريبية لمعجم الاستشهادات
- 5- ملاحظات واستنتاجات .

أولاً، موقع معجم الاستشهادات من مؤلفات الكاتب :

عندما نتتبع مسار أي كاتب من خلال ما كتب من مؤلفات، فإن أي مؤلف من مؤلفاته ليس مجرد رقم يضاف إلى عددها، بل إنه يمثل مرحلة من المراحل التي تدخل مع غيرها من المؤلفات السابقة في علاقة نمو وتطور أو إقصاء وتجاوز. ومن هنا علينا ونحن نقرأ المؤلف الجديد أن نبحث عن صلته بالمؤلفات القديمة.

للدكتور القاسمي، كما هو معلوم، اهتمامات متعددة. فله مؤلفات في اللغة والنقد والترجمة والقصة، فما هو موقع معجم الاستشهادات من هذه المؤلفات؟ وهل هناك صلة بين المعجم وباقي مصنفات الكاتب بمختلف أنواعها؟

للإجابة عن هذين التساؤلين سأنظر إلى علاقة هذا المعجم بغيره من مؤلفات الكاتب من خلال مستويين، أولهما ظاهري وثانيهما باطني.

1. على المستوى الظاهري، يمكن اعتبار معجم الاستشهادات امتداداً للتأليف اللغوي لدى الكاتب وخاصة الجانب المتعلق بالمعجم، إذ سبق له أن أصدر كتاب «مختبر اللغة»⁽²⁾ سنة 1970، و«علم اللغة وصناعة المعجم»⁽³⁾ سنة 1975، وساهم في تأليف «معجم مصطلحات علم اللغة

الحديث»⁽⁴⁾ سنة 1981، كما كان منسّق «المعجم العربي الأساسي»⁽⁵⁾ سنة 1989. وصدر له مؤخراً كتاب «المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق»⁽⁶⁾ سنة 2003. وعلى هذا الأساس، فإن معجم الاستشهادات تطبيق لبعض المبادئ المعجمية وبلورتها في شكل مصنّف له مواصفات المعجم وخاصة من حيث ترتيب مداخله.

2. أما على المستوى الباطني، فأرى أن معجم الاستشهادات استثمار للمعرفة الأدبية ببعديها النظري والتطبيقي، إذ لا يمكن أن يُقدم على هذا النوع من التأليف إلا من أكثر مطالعة الكتابة الأدبية وخبر أساليبها ومقامات استعمالها. ولعل هذا ما يفسر «أن معاجم الاستشهادات يضطلع بتأليفها عادة أدباء ونقاد وباحثون في الآداب. لفريق الأخصائيين الذي أشرف على معجم أكسفورد للاستشهادات، مثلاً، يضم خبراء في شكسبير وميلتن وبوب وتيسون ودرا يدن»⁽⁷⁾.

وقد اقترنت المعرفة الأدبية لدى القاسمي بشقيها الإبداعي والنقدي بالمعرفة اللغوية التي تقوم على التنظيم والتبويب؛ ذلك أن اختيار استشهادات بعينها من بين الركام الهائل من الإنتاج الإبداعي والفكري له أهميته في الدلالة على وجهة نظر من يقوم بهذا الاختيار وعلى طبيعة الزاوية التي ينظر منها إلى قيمة النصوص التي يختار منها وطبيعة المواضيع المطروحة فيها. وقد أشار الكاتب إلى هذا في التمهيد إلى المعجم قائلاً:

«منذ أربع سنوات ونيف وأنا أطوف في حقول الفكر العربي، وأتجول في بساتين آدابه، وأتنزه في حدائق أشعاره، وأمعن النظر في منشور أزهاره، ثم أقطف أروعها منظرًا وأزكاها أريجاً، فأجمع الورود التي فاح عبيرها حتى تناقلته النسيمات العليّة إلى الوديان المجاورة والسهول المتاخمة، ليسرّ به الأصحاب ويرتاح له الخلان؛ وألتقط الزنابق النادرة الألوان، التي يبحث عنها أهل الفن السامي وذوو الذوق الرفيع، ويتبارى في مضاهاتها عباقرة المصوِّرين ويتنافس في رسمها جهابذة الرسّامين.

«منذ أربعة أعوام ونيف وأنا أغوص في بحار الأدب العربي، شعره ونثره، أجتبي اللآلي الشمينّة النادرة... وبعد هذا وذاك، أنظم تلك الأزاهير وأرتب تلك الجواهر في معجم فريد من نوعه، رائد في ميدانه، يقوم على الاستشهاد والتمثيل والاقتباس، لأضعه بكل عناية وأناة، وبكل فخر واعتزاز على رفوف مكتبتنا العربية الزاهرة، هدية محبة ورمز ولاء للغتنا المجيدة»⁽⁸⁾.

ويهمنا من هذا الكلام الشاعر الذي يلخص بلغة بيانية المجهود الذي بذله الكاتب في تأليف هذا المعجم.. أقول: يهمنا منه ثلاث كلمات هي: أجمع، أنظم، أرتب.

أجل، إن الجمع والتنظيم والترتيب هي الأسس التي يقوم عليها معجم الاستشهادات، وبالرغم من طابعها التقني الذي يوهم القارئ بسهولة إنجازها فهي ليست كذلك بالنظر إلى

اتساع المدى الجغرافي الذي يغطيه هذا المعجم، إذ يشمل أغلب البلدان العربية، وبالنظر كذلك إلى اتساع المدى التاريخي، إذ يشمل كافة عصور الثقافة العربية، هكذا تنعدم الحدود على المستوى الجغرافي والثقافي وكأن هذا المعجم ينجز في صمت ما فشلت السياسة في تحقيقه، ولو توحد العلم والسياسة لتحول يأس الأمة العربية إلى أمل، ولكن هيهات.

يقع معجم الاستشهادات في 684 صفحة من الحجم الكبير. وتنقسم كل صفحة إلى عمودين. ويضم المعجم 1456 مدخلاً رُتبت ترتيباً ألف بائياً، كما أن المعجم مزود بفهرسين: أحدهما للموضوعات والثاني للمؤلفين، بحيث يسهل على القارئ الوصول إلى المادة المطلوبة، كما تجعل الدارس على بينة من المتن الموظف بالمعجم.

يُلاحظ أن عنوان المعجم عبارة عن مركّب إضافي: «معجم الاستشهادات». وتثير إضافة الاستشهادات إلى كلمة «معجم» في ذهن القارئ عدة أسئلة منها على الخصوص: هل يشمل تعريف المعجم معاجم الاستشهادات؟ إذا كان الجواب بالنفي، فلماذا تستبعد تعاريف المعجم معاجم الاستشهادات؟ أما إذا كان الجواب بالإثبات، فما هو معجم الاستشهادات وما هي وجوه الائتلاف والاختلاف بينه وبين معجم اللغة؟ وما طبيعة الاستشهادات وما الفرق بينها وبين الأمثال؟ وما هي مصادرها وما هي معايير انتقائها وما طولها؟ وما هي وظيفتها؟

مع أن المؤلف لم يجب عن جميع هذه الأسئلة في مقدمة المعجم كما كان يتوقع القارئ منه ذلك، فقد أفرد لها موضوعاً خاصاً ضمن كتابه الصادر مؤخراً بعنوان «المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق» الذي مرّ ذكره. ولذلك سأكتفي هنا بتلخيص الإجابة عن الأسئلة المذكورة انطلاقاً من الموضوع المشار إليه.

يُلاحظ المؤلف منذ البداية أن تعريف كلمة «معجم» في عدد من اللغات الحية بما فيها اللغة العربية لا يشمل معاجم الاستشهادات. ويرجع ذلك إلى سببين:

الأول، ارتباط كلمة «معجم» في أذهان عامة الناس القاموس، ويرسخ هذا الارتباط توجه معاجم الاستشهادات لجمهور متخصص محدود.

الثاني، أن معاجم الاستشهادات ليست معاجم بالمعنى الحقيقي للكلمة. ثم يخلص في النهاية إلى «أن كلمة معجم خضعت لنوع من التوسّع الدلالي، وتبعاً لذلك فإن المعجم لم يعد مقتصرًا على مفردات محدودة ومعلومات ذات صلة بها، وإنما قد يشتمل على موضوعات أو مواد مختارة من موضوع أو نشاط معين، ومرتبة ترتيباً ألف بائياً أو ما شاكله. وبعبارة أخرى أن الخصيصة المميزة الرئيسة للمعجم انتقلت من المضمون إلى الشكل ولم تعد الخصيصة متمثلة في المعلومات التي يقدمها المصنّف، وإنما في النظام التي ترتب به تلك المعلومات لمساعدة القارئ على الوصول إليها بيسر وبأقصر وقت»⁽⁹⁾.

وتأسيساً على ذلك يقترح المؤلف التعريف التالي لمعجم الاستشهادات: «هو كتاب مرجعي يضم شواهد نثرية وشعرية مرتبة بطريقة ملائمة، عادة ألف بائياً، حسب الموضوعات أو أسماء المؤلفين»⁽¹⁰⁾.

ويقف المؤلف عند مكونات هذا التعريف بالشرح والتحليل وضرب الأمثلة، فيعرف الاستشهاد بأنه «نص يُقتبس من مؤلف آخر يمكن اعتباره مرجعاً»⁽¹¹⁾، مبيناً أن الاقتباس يخضع لمعيارين: أولهما الشيعي أي أن يكون الاستشهاد شائعاً مشهوراً، ثانيهما تحول الاقتباس إلى مقولات ثابتة «كالأمثال والأقوال السائرة والحكم والقواعد الفقهية والقانونية»⁽¹²⁾. ولعل هذا ما يفسر أن الاستشهادات عادة ما تتألف من جمل قصيرة لاذعة حكيمة، غير أن هذا لا يعتبر قاعدة عامة، إذ إن مداخل معجم أكسفورد للاستشهادات يتراوح طولها بين كلمة واحدة وكلمتين واثنين وأربعين بيتاً من الشعر تشكل قصيدة كاملة.

ويتكامل هذا الموضوع مع المقدمة الطويلة التي خص بها المؤلف معجم الاستشهادات ولذلك لن أعرض لها لأنني أفترض أنكم اطلعت عليها.

ويلاحظ أن الشعر هو الذي يهيمن على متن المعجم، وليس هذا الأمر جديداً بالنظر إلى أن أغلب الشواهد النحوية والبلاغية من الشعر، لأنه ديوان العرب، فهو مستودع لسلوكهم اللغوي والعاطفي والاجتماعي، وقد سبق للجاحظ أن انتبه قديماً للتوظيف المتعدد للشعر عندما قال: «ولم أر غاية النحويين إلا كل شعر فيه إعراب، ولم أر غاية رواة الأشعار إلا كل شعر فيه غريب أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج، ولم أر غاية رواة الأخبار إلى كل شعر فيه الشاهد والمثل»⁽¹³⁾.

من هنا يتضح أن الشعر يمثل سلطة حجاجية في كثير من المجالات المعرفية العربية القديمة. وترجع حجاجية الشعر في معجم الاستشهادات إلى ثلاثة مصادر:

- الأول، جنس الشعر نفسه باعتباره كلاماً من نوع خاص لا يتأتى لسائر الناس، ومن ثم فإن الاستشهاد به مردودية على مستوى الإقناع.

- الثاني، أقدميته، فأغلب الاستشهادات الشعرية بالمعجم من الشعر القديم. ونحن نعلم أن عامة القراء يميلون إلى الشعر القديم لأنه جزء من التراث.

- الثالث، قائله، إذ إن أغلب الاستشهادات لشعراء كبار مما يمنحها قوة حجاجية تستمدّها من مكانة قائلها داخل الشعر العربي القديم، ولعل هذا ما يفسر الحضور القوي للمتنبّي (225 مرة)، وأبي تمام (80 مرة)، وأبي نواس (78 مرة).

ثانياً، موقع معجم الاستشهادات من الحركة المعجمية في القديم والحديث :

من المفارقات العجيبة أن يلاحظ القارئ عدم وجود لهذا المعجم على كثرة ما صنف من معاجم باللغة العربية في العصر الحديث. ولهذا يعتبر أول معجم من هذا النوع يصدر باللغة العربية إلى يومنا هذا. ولنا أن نتصور، من جهة، حجم الفراغ الذي يسده إصدار هذا المعجم، ومن جهة ثانية حجم فقر المعجمية العربية الحديثة في هذا المضمار في وقت تعددت فيه معاجم الاستشهادات الأجنبية شكلاً ومضموناً لتستجيب للأهداف المتوخاة من موضعها ولتلبى مختلف حاجات الفئات المستهدفة على تباين مستوياتها الدراسية.

وفي مقابل هذا الفراغ المعجمي العربي الحديث، نجد المعجمية العربية القديمة ذات أهمية خاصة بالنظر إلى تنوعها منهجاً ومادة وتأليفاً وحجماً وكثافة. ولهذا فليس من الغريب أن نجد لمعجم الاستشهادات أصولاً في التراث المعجمي العربي القديم. وقد أشار الكاتب إلى هذه الأصول في مقدمة المعجم وكذلك في كتاب « المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق » فلا حاجة إذن لإعادة ذكرها هنا.

ثالثاً، الأسس النظرية لمعجم الاستشهادات :

تقوم الصناعة المعجمية التي تختلف أنواعها على أسس نظرية قد لا يصرح بها صانع المعجم، ومع ذلك فقد نلتمس تلك الأسس أو بعضها على الأقل بدءاً بطبيعة متن المعجم (قديم، حديث، معاصر، فصيح، عامي...)، ونوعية الفئة المستهدفة، مروراً بترتيب مواده وانتهاءً بطرق عرضها.

وسأركز هنا على أحد الأسس النظرية الهامة التي يقوم عليها معجم الاستشهادات حيث أشار إليها المؤلف عرضاً في النقطة الرابعة الواردة ضمن عنوان: « إرشادات استعمال المعجم » حيث قال :

«رُتبت الاستشهادات ألف بائياً حسب تسلسل حروفها الأول فحروفها الأخرى، تحت كل موضوع. ورُتبت الموضوعات ألف بائياً حسب جذرها...»⁽¹⁴⁾.

ثم عاد في الصفحة 50 لهذا الأساس في معرض حديثه عن ترتيب مواد معجم الاستشهادات حيث بيّن أن الترتيب الموضوعي إحدى الطرق المعتمدة في الترتيب، إذ «يسعى المصنّف في هذه الحال إلى ترتيب شواهد طبقاً لموضوعات الشواهد مرتبةً ترتيباً ألف بائياً مثل: الإخلاص، البر، التوبة، الثواب، الجمال، الحب... ثم توضع الشواهد التي تتعلق بموضوع واحد تحت ذلك الموضوع»⁽¹⁵⁾.

يتعلق الأمر إذن بالترتيب الموضوعي لمعجم الاستشهادات ويقوم هذا الترتيب على أساس نظري يتلخص في أن اللغة تنتظم في موضوعات، أو بعبارة أدق في حقول دلالية. ويترتب على هذا الأساس النظري جملة مبادئ منها على الخصوص:

- كل وحدة معجمية تنتمي إلى حقل معين
 - لا وجود لوحدة معجمية تنتمي إلى أكثر من حقل دلالي واحد،
 - لا يمكن معرفة دلالة الكلمة بمعزل عن السياق الذي ترد فيه،
 - لا يمكن دراسة الكلمات بمعزل عن تركيبها النحوي .
- غير أن هذا الأساس النظري المعقد لا يعني أننا أمام معجم للحقول الدلالية، وإلا لكان عنوانه كذلك، بل إننا أمام معجم يستوحي هذه النظرية في ترتيب مادته وطرق عرضها، ولكي يتضح لنا هذا بجلاء سنقف في عجالة عند موضوع الحب والموت في المعجم، على سبيل التمثيل لا الحصر.

يلاحظ أن المؤلف خصّ الموضوع الأول بعدة مداخل هي: الحب، الحبيبة، المحبة، الود، العشق، الغرام، الهوى، الهيام، الوجد...، فلماذا فصل بين هذه المداخل مع أنها تنتمي إلى حقل دلالي واحد؟ إن سبب الفصل يعود أساساً إلى الترتيب الألفبائي الذي اختاره المؤلف لموضوعات المعجم لكنه كان على وعي تام بالتداخل الدلالي الحاصل بين الألفاظ المكونة لحقل الحب. ولهذا كان يحيل في نهاية كل مدخل على باقي المداخل المنتمية لنفس الحقل (ص: 142، 143، 375، 420، 588-589، 59). وينطبق هذا أيضاً على الألفاظ الدلالية المنتمية لحقل الموت، كما ينطبق أيضاً على باقي الحقول. وهناك سبب آخر هو الفرق بين المعالجة المعجمية والمعالجة الموسوعية للمعلومات. فالموسوعة تجمع المعلومات تحت موضوعات كبيرة، في حين يفتتها المعجم تحت مفردات كثيرة.

رابعاً، الأبعاد التجريبية لمعجم الاستشهادات:

إن التأليف المعجمي بحكم طبيعته عمل تطبيقي يهدف إلى تحقيق حاجات عملية عادة ما تتخذ طابع الآنية والاستعجال.

وإذا كان المعجم اللغوي العام يستجيب لحاجات المتعلمين بمختلف مستوياتهم، فإن معجم الاستشهادات يعتبر من المعاجم الخاصة بحكم الفئة التي يستهدفها، إذ تكون «من جميع الذين يمارسون صنعة الكتاب أو الكتابة (إذ) أصبح من الضروري لكل خطيب أو كاتب أن يعود لمصدر محدد يزوده بالاستشهادات التي يحتاج إلى تضمينها في كلامه أو لضبط شاهد كان يحفظه أو استكمالها أو معرفة قائله»⁽¹⁶⁾. وأقرب شاهد إلينا في هذا المجال كتابة علي القاسمي نفسه إذ عادة ما يضمن مقالاته الأدبية عدداً من الاستشهادات الشعرية والنثرية على

السواء لتعزيز آرائه ومواقفه، كما هو الحال مثلاً في كتابه «من روائع الأدب المغربي»، إذ تحتوي مواضيعه على عدد كبير من الشواهد وخاصة مواضيع: «مفهوم الموت في الثقافة العربية: قراءة في رواية وعاد الزورق إلى النبع لعبد الكريم غلاب»، و «الشيخوخة في الأدب العالمي: قراءة في رواية الشيخوخة الظالمه لنفس المؤلف»، و «مفهوم المرأة في العقل العربي: قراءة في رواية فتنة الرؤوس والنسوة لابن سالم حميش»، و «مفهوم الصداقة لدى محمد أبو طالب».

ومن المناسب أن أشير هنا إلى أن كثيراً من الشواهد الواردة بالمقالات المذكورة توجد في «معجم الاستشهادات»، مما يجعلها في نظري نواة لهذا المعجم بحكم أقدميه نشرها، كما يجعل منها دليلاً عملياً لكيفية استخدام الشواهد التي لخصها لاحقاً في معجم الاستشهادات في ضرورة الالتزام بشرطين أساسيين: أحدهما الاقتصاد في استعمال الشواهد، وثانيهما الدقة في توقيت الاستعمال.

وإلى جانب تلبية هذا النوع من الحاجيات، فإن المعجم يفتح أمام القارئ آفاقاً للتأمل في جملة من المفاهيم والرؤى والقيم الجمالية الأخلاقية التي تشكل مع غيرها منظومة مرجعية للعقلية العربية، ذلك أن ترتيب الشواهد طبقاً للمعلومات التي تتناولها يسمح للقارئ بتكوين فكرة عن صورة بعض الموضوعات في الثقافة العربية مثل موضوعات الحب، الأخلاق، الموت... صحيح أنها صورة ناقصة لقلة الشواهد المخصصة لها، ولكنها تحتوي مع ذلك على ملامح قابلة لمقارنتها بمثيلاتها من الصور في الثقافات الأخرى. ويعنى هذا أن معجم الاستشهادات يعكس من هذه الناحية صورة ولو جزئية للثقافة العربية متمثلة في هذه الأقوال التي تنطوي على رؤى ومواقف وتصورات من بعض القضايا المتعلقة بحياة الشخصية العربية.

وبالرغم من أن أغلب الاستشهادات تفصلها الآن عدة قرون، فإن تجميعها في هذا المعجم دليل على تخطيها لتلك القرون ومعايشتها لنا، بل إننا نعيد إنتاجها عندما نوظفها في كتاباتنا. ومن هنا تتسرب تلك القيم والمواقف إلى الأجيال اللاحقة وتصبح أطراً مرجعية لتكلمي العربية توحد رؤاهم وتُشعرهم بالانتماء إلى ثقافة واحدة.

قد يبدو هذا الأمر بعيداً بالنسبة لتأليف معجمي يجمع استشهادات متداولة بين متكلمي العربية ويصنّفها على نحو مخصوص، ولكنه يتجاوز ذلك إلى نقل حضارة وثقافة اللغة الموصوفة، لأن لغة الأمة تعكس منطقها وفكرها. ومن هنا يتضح أن المعجم ليس مجرد كتاب لشرح معاني الكلمات أو تجميع الشواهد، بل هو التعبير البليغ عن الثقافة والانعكاس الصادق لها.

كما يصلح هذا المعجم قاعدة لصناعة معاجم لموضوعات الشعر العربي في اللغة العربية وهي غير متوفرة في التأليف المعجمي العربي الحديث. وهكذا يمكن الانطلاق من بعض موضوعات معجم الاستشهادات ثم إدراج جميع الأبيات الشعرية التي تتعلق بكل موضوع على حدة.

ومن الممكن البدء بصناعة معاجم جزئية تخص شاعراً بعينه أو مجموعة من الشعراء الذين درج النقد على تصنيفهم ضمن هذه المدرسة أو تلك كشعراء مدرسة عبيد الشعر أو شعراء المعلقات والأصمعيات والمفضلديات. وأعتقد أن صناعة مثل هذه المعاجم جزئية كانت أم شاملة ستضعنا أمام معطيات منظمة ودقيقة قد تفيد الدراسات الأسلوبية التي تهتم بدراسة النصوص انطلاقاً من مكوناتها اللغوية. ومن الممكن الاستعانة بالحاسوب لأجل تخزين مادة هذا المعجم واستعادتها عند الحاجة، إذ يمكن عن طريق الجذر اللغوي الواحد استدعاء جميع الأبيات الشعرية التي وردت فيها الكلمات المنتمة لذلك الجذر عند الشعراء الآخرين.

خامساً، ملاحظات واستنتاجات :

سبقت الإشارة إلى أن هذا المعجم يعتبر أول معجم من نوعه في اللغة العربية ومن هنا تأتي صعوبة تقييمه، إذ لا وجود لمثيل له يمكن للدارس أن يعتمد عليه في الموازنة بينهما وبيان استجابة كل منهما لحاجيات القارئ.

وأمام هذه الوضعية ارتأيت النظر إلى هذا المعجم من خلال ثلاثة جوانب أساسية هي : الهدف ، المضمون، الشكل .

1 - وحدة الهدف : أشرت سابقاً إلى أن المعجم يستهدف جمهوراً محدوداً يتمثل في جميع الممارسين لصناعة الكلام أو الكتابة من أجل تلبية أحد الأغراض التالية :

أ - تزويده بالاستشهادات التي يحتاج إلى تضمينها في كلامه،

ب - ضبط شاهد كان يحفظه،

ج - استكمال الشاهد أو معرفة قائله .

فإلى أي حد يحقق معجم الاستشهادات هذه الأهداف؟

إن حجم المعجم وطريقة ترتيب مداخله لا يدعان مجالاً للشك في تحقيق الهدف الأول، إذ يكفي أن يحدد مستخدم المعجم الموضوع الذي يرغب في معرفة الاستشهادات التي قيلت فيه ليصل إلى ذلك مباشرة، سواء عن طريق فهرس الموضوعات أم الترتيب الأبجائي .

أما تحقيق الهدفين الثاني والثالث، فلا أعتقد أن معجم الاستشهادات يحققهما بالكامل، ذلك أنه لا يضبط بالشكل التام سوى الآيات القرآنية، كما أنه لا يعين في بعض الأحيان قائل بعض الأبيات الشعرية، إذ يكتفي بعبارة: « ينسب إلى فلان » أو يذيل البيت الشعري بكلمة « شاعر » فقط .

ومن المرجح أن المراجع التي نقل منها المؤلف هذه الأبيات لا تنسبها إلى قائلها، فانتقل ذلك إلى المعجم خاصة وأن العناية تتجه في الاستشهاد إلى القول لا القائل، وكأني بالمؤلف قد فطن إلى هذا وصدر مقدمة المعجم بقول الإمام علي بن أبي طالب: « لا تنظر إلى مَنْ قال، وانظر ما قال ».

2 - المضمون:

سأنظر إلى مضمون المعجم من جانبين: الأول، مقدمة المعجم؛ والثاني، صلب المعجم نفسه. **مقدمة المعجم:** عادة ما يراد من مقدمات المعاجم بيان المعلومات التالية: الهدف من المعجم، مصادره، المنهج المتبع في تصنيفه، النظرية اللغوية التي يركز عليها، دليل استعمال المعجم.. . وقد غطت المقدمة المطولة لمعجم الاستشهادات جميع هذه المسائل مع أنها لم تعرب بوضوح عن النظرية اللغوية التي يستوحىها المؤلف في بناء معجمه الأمر الذي دفعني إلى تأويل بعض الإشارات الواردة في مقدمة المعجم من أجل الكشف عن الأساس النظري الذي ينطلق منه المعجم.

وبالرغم من الطابع الشمولي للمقدمة المذكورة، فإن قارئ موضوع: « هل يعد معجم الاستشهادات معجماً؟ » الوارد ضمن كتاب « المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق »، يشعر بأهمية إدماجه بمقدمة المعجم بحكم عمق الصلة بينهما.

صلب المعجم: إن إلقاء نظرة متفحصة على فهرس الموضوعات يبين الطابع الشمولي لمعجم الاستشهادات، إذ يلم بجميع المواضيع التي تتبادر إلى ذهن القارئ، ولذلك من المستبعد ألا يجد القارئ ضالته في هذا المعجم؛ ويرجع ذلك إلى الترتيب الألفبائي الذي ارتضاه الكاتب لمعجمه، إذ مكنه من وضع قائمة مطولة للموضوعات تبعاً للطاقة التوليدية التي يسمح بها الترتيب المذكور، ثم أدرج تحت كل موضوع مجموعة من الاستشهادات يتراوح عددها بين شاهد واحد إلى أربعة عشر شاهداً من مختلف فنون القول. كما يتراوح طول الاستشهاد الواحد - بالنسبة للشعر - من بيت شعر واحد إلى ستة أبيات. أما في النثر، فمن جملة واحدة إلى فقرة كاملة، مع العلم أن موضع الشاهد كثيراً ما يوجد في بيت شعري واحد أو جملة واحدة، ولكن حرص المؤلف على نقل الدلالة الكاملة للاستشهاد جعله يورد السياق الذي جاء فيه الاستشهاد، كما أنه يربط بين الشواهد المنتمية لموضوع واحد بالرغم من اختلاف مداخلها وذلك حرصاً على الاطراد الدلالي. أما حينما تتعدد مواضيع الشاهد الواحد، فإن المؤلف يدرج المعنى الذي تحيل عليه الكلمة الأولى من الشاهد ويحيل على باقي المعاني، في حين يضطر إلى إدراج بعض الاستشهادات التي يتعذر معرفة معناها من دلالتها الحرفية ضمن الموضوع الذي تشير إليه دلالتها المجازية، كما هو الحال مثلاً في التعابير المسكوكة.

إلا أنه يُلاحظ، مع ذلك، إدراج بعض الاستشهادات في مواضيع بعيدة عنها، مثل قول العماد الأصفهاني: «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده: لو غُيّر هذا لكان أفضل، ولو تُرك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر». (ص 478-479). فقد أدرجه المؤلف ضمن موضوع «الكتابة»، في حين أنه أقرب في رأيي إلى موضوع «الكمال أو النقصان». ويمكن التأكد من هذا من خلال الاطلاع على الشواهد الواردة بالمواضيع الثلاثة. ويبدو أن الترتيب الألفبائي هو الذي دفع المؤلف إلى إدراج قول العماد الأصفهاني ضمن موضوع «الكتابة»، سيما أن قول العمال مصدر عبارة: «لا يكتب الإنسان كتاباً».

كما كان لهذا الترتيب أيضاً أثرٌ واضح على نوعية بعض الاستشهادات بحيث يشعر القارئ كأنه أمام شواهد معجمية لا يدري في أي سياق سيستخدمها، كما هو الحال في قوله تعالى: «ألم نشرح لك صدرك، ووضعنا عنك وزرك، الذي أنقض ظهرك، ورفعنا لك ذكرك». (ص 286)؛ وقول الشاعر (289):

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

من قال: حاد عن أصله أو قال: مات، فقد كذب

وقول طه حسين (ص 511): «إن مشكلة الامتحان في مصر أصبحت خطراً على التعليم وعلى الأخلاق وعلى السياسة، وعلى أشياء أخرى».

ومرد ذلك إلى أن هذه القوال ظلت مرتبطة بسياقاتها الأصلية التي قيلت فيها أول مرة، ومن ثم فقد يصعب على القارئ أن يوظفها في سياقات مماثلة. وينبغي الإشارة إلى أن هذا النوع من الاستشهادات قليل جداً بالمعجم.

وفي إطار صلب المعجم نفسه، يلاحظ القارئ وجود عدد من الاستشهادات لأدباء ومفكرين معاصرين أحياء، مثل: محمد الحلوي (ص 59)، ونجيب محفوظ (ص 62)، وعبد الكريم غلاب (ص 152) ومحمد العربي الخطابي (ص 152)، وعبد الهادي بوطالب (ص 599) وسميح القاسم (ص 368) ومحمود درويش (ص 605) وغيرهم من الأدباء والمفكرين الذين ما زالوا على قيد الحياة.

وبالرغم من أن هؤلاء قلة قليلة بالقياس إلى الأعلام الذين اعتمدت نصوصهم، فإن القارئ يتساءل عن سبب تراجع المؤلف عما سطره في ص 52 من مقدمة المعجم في كون المعجم لم يشتمل «على استشهادات من الكتاب والشعراء الذين هم على قيد الحياة، لأن طبيعة الاستشهاد وتمكنه من الشيوخ والانتشار تتطلب مرور فترة زمنية كافية، لذلك، وهذا ما لا يتأتى عادة لأقوال الأدباء الأحياء».

سبقت الإشارة إلى أن المعجم يشتمل على فهرسين: أحدهما للموضوعات والثاني للمؤلفين. وقد رتبا معاً ترتيباً ألف بائياً ووضعت أمام كل موضوع ومؤلف أرقام الصفحات التي وردت في الاستشهادات الخاصة بكل منهما على حدة ليسهل على القارئ الرجوع إليهما عند الحاجة. ويلاحظ في فهرس المؤلفين الإحالة مرتين على الاسم الواحد بالنسبة لبعض الأعلام بحيث يتوهم القارئ أنه أمام مؤلفين اثنين مع أن الأمر يتعلق بمؤلف واحد ذكر تارة بالاسم وأخرى مقترناً بالنسب.

وهذا فصل فهرس المؤلفين بين ابن حزم وابن حزم الأندلسي، وبين ابن خفاجة وابن خفاجة الأندلسي، وابن شهيد وابن شهيد الأندلسي، وابن طباطبا وابن طباطبا العلوي، وابن القيم وابن القيم الجوزية، وأبي تمام وأبي تمام الطائي، وغيرهم من بعض المؤلفين. ويبدو أن استشهادات هؤلاء المؤلفين نُقلت أثناء جمع مادة المعجم تارة باسم وأخرى باسم آخر. إلا أن من قام بفهرسة المعجم لم ينتبه إلى المطابقة بين الاسمين.

3 - الشكل: يمتاز إخراج هذا المعجم بالجودة، فأوراقه جيدة وصفحاته كبيرة، كما أن مواده مرتبة بشكل مريح للنظر، إذ نضدت المواد بحروف بارزة تمكن القارئ من العثور عليها بسهولة، ومع ذلك فإنه لا يخلو من بعض الأخطاء المطبعية التي لا تخفى على القارئ.

خاتمة وخلاصة

حاولت من خلال هذا العرض أن أبين موقع معجم الاستشهادات من مؤلفات الكاتب ومن الحركة المعجمية العربية قديماً وحديثاً، فأنتهيت إلى أن المعجم يشكل من حيث الجمع والتنظيم والترتيب امتداداً للتأليف اللغوي والمعجمي لدى الكاتب، ومن حيث طبيعة المتن فهو امتداد لمؤلفات الكاتب الإبداعية والنقدية.

كما سجلت، من جهة ثانية، أن الكتاب يعتبر أول معجم يصدر حديثاً باللغة العربية في هذا الموضوع، علماً بأن هناك أصولاً له في الحركة المعجمية العربية القديمة، الأمر الذي يشجع على القول إنه امتداد أيضاً لتلك الأصول مع اختلاف في الرؤية والمنهج.

كما حاول العرض أيضاً أن يكشف عن بعض المبادئ النظرية التي يستوحيها المؤلف في بناء المعجم، فبين حضوراً ضمنياً لنظرية الحقول الدلالية سواء على مستوى تقسيم المعجم إلى موضوعات أم الحرص على الربط، داخل المتن، بين الموضوعات المنتمية لحقول دلالية واحدة.

وبين العرض أيضاً هيمنة المتن الشعري على الاستشهادات، وأرجع ذلك إلى مكانة الشعر في الثقافة العربية. كما بين أيضاً الأبعاد التجريبية لهذا المعجم، وركز على اثنين: أولهما، إمكان استثمار استشهادات المعجم، بحسب المواضيع، في الكشف عن بعض ملامح المنظومة الثقافية

العربية القديمة التي يعكسها الشعر العربي . ثانيهما، إمكان تأسيس معجم للموضوعات في الشعر العربي قد تُستثمر في الدراسات الأسلوبية للنصوص الشعرية .
كما انتهى العرض بتقديم بعض الملاحظات انطلاقاً من ثلاثة جوانب هي : الهدف، والمضمون، والشكل . وبالرغم من الملاحظات التي أبدّاها بهذا الخصوص، فإن المعجم يظل، مع ذلك، إضافة هامة للمعجمية العربية الحديثة .
واعتقد أنه قد تكوّنت لدى المؤلّف، انطلاقاً من اللقاءات الدراسية العديدة التي نُظّمت لدراسة أبعاد هذا المعجم، ملامح الصورة التي ستظهر بها الطبعة الثانية الموسعة من هذا المعجم والتي تناهى إلى سمعنا أن « مكتبة لبنان ناشرون » قد شرعت بإنجازها .

الهوامش

- (1) علي القاسمي، معجم الاستشهادات (بيروت : مكتبة لبنان ناشرون، 2001)
- (2) علي القاسمي، مختبر اللغة (الكويت : دار القلم، 1970)
- (3) علي القاسمي، علم اللغة وصناعة المعجم (الرياض : جامعة الرياض، 1975) ط 3 (بيروت : مكتبة لبنان ناشرون، 2004)
- (4) محمد حسن باكلا وآخرون، معجم مصطلحات علم اللغة الحديث (بيروت : مكتبة لبنان ناشرون، 1983)
- (5) علي القاسمي - المنسق - وآخرون، المعجم العربي الأساسي (باريس : الألكسو / لاروس، 1989)
- (6) علي القاسمي، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق (بيروت : مكتبة لبنان ناشرون، 2003)
- (7) The Oxford Dictionary of Quotations (London: Oxford University press, 1941) p. v.
- (8) علي القاسمي، معجم الاستشهادات، ص 15 .
- (9) علي القاسمي، المعجمية العربية بين النظرية والتطبيق، ص 143 .
- (10) المرجع السابق، ص 143 .
- (11) المرجع السابق، ص 134 .
- (12) المرجع السابق، ص 144 .
- (13) أبو عثمان الجاحظ، البيان والتبيين (بيروت : دار إحياء التراث العربي، ب ت) ج4، ص 24 .
- (14) علي القاسمي، معجم الاستشهادات، ص 13 .
- (15) المرجع السابق، ص 50
- (16) المرجع السابق، ص 46